الاستعمارية القديمة والحديثة، بالنسبة لاستعمال الثقافة كأسلوب للنفاذ إلى شعوب العالم الثالث[٢٨].

الأرض جاهزة

والواقع أن تمهيد الأرض للغزو الثقافي الامبريالي والصهيوني، كان قد قُطعت فيه أشواط عديدة، قبل إبرام معاهدة الصلح رسمياً. فمنذ عام ١٩٧١، ومع بدء طرح شعار مرحلة بناء الديمقراطية، كان قد بدأ هجوم، شامل وعنيف، يهدف إلى هدم الجهاز الايديولوجي السابق على أيار (مايو) ١٩٧١، بإدخال أفكار مغايرة، وبتغير الأشخاص السابقين في وسائط الاعلام، وطردهم إلى خارج المؤسسات الثقافية والاعلامية. وتم إشراك قسم مهم من المثقفين المصريين في نشاط «الوكالة الأميركية للتنمية الدولية» وفي الجامعات والمؤسسات الأميركية خاصة، وذلك لاستقطاب شخصيات ذات تأثير في الرأي العام، مع توفير الامتيازات الملائمة لهم وإقناعهم بالمشاركة المباشرة في «تحديث مصر» اعتماداً على التاريخ الطويل، في الاعتماد على الأساليب الغربية في التعليم المصري. كما تم توثيق التعاون مع مراكز البحوث المصرية. وكانت أسوأ صورة من صور ذلك التعاون، حينما تم نقل مجموعة الأعمال التي نفذها مركز الدراسات الاجتماعية والجنائية منذ إنشائه في إمبابة في القاهرة، إلى قسم علوم الإنسان في الجامعة الأميركية عام ١٩٧٥، بقصد المحافظة عليها من الاندثار أو الضياع[٢٩].

ومن ثم، فقد كانت المحنة الثقافية، التي تشهدها مصر الرسمية حالياً، هي الإطار الشامل الذي انتشرت في سياقه سرطانات الغزو الثقافي، بحيث يمكن القول: أن هذه المحنة ليست مجرد غزوة إمبريالية صهيونية فحسب، بل هي بنية ثقافية أيديولوجية داخلية، أفرزتها وتفرزها الهياكل السياسية والاقتصادية السائدة. هذه البنية الثقافية والأيديولوجية، هي التي تمهِّد السبيل لاستقبال الثقافة الامبريالية والصهيونية؛ كما ورد في المذكرة التي قدمها الدكتور محمود أمين العالم للمؤتمر الاستثنائي، لوزراء الثقافة العرب، الذي انعقد في دمشق، يومي ٢٨ و٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٠، لبحث الأوضاع الثقافية في الوطن العربي والغزوة الصهيونية لمصر وللوطن العربي.

وكر الحرية الأسود

والواقع أن التسلل الامبريالي الصهيوني الثقافي، لا يعتمد في إنجاز أغراضه في العقل العربي، والمصري خاصة، على الرجعية المصرية ومؤسساتها الحكومية فحسب، بل هو يعتمد كذلك على «الرجعية العربية» في النفاذ إلى عقر دار الفكر العربي بمصر، لتصفيته داخلياً عبر «أشكال» متنوعة قد لا ترى للوهلة الأولى بالعين المجردة. وفي هذا السياق، نتذكر واحداً من تلك «الأشكال المقنعة» للتفريغ العقلي والوجداني والسياسي، والذي أثار بعض العواصف عام ١٩٧٨، في الأوساط الثقافية والفكرية المصرية.

فتحت شعار «يا أحرار العالم اتحدوا» نشرت جريدة «الجمهورية» الرسمية وجريدة «الأحرار» (لسان حال حزب الأحرار الاشتراكيين المتحالف مع السلطة الحاكمة) سلسلةً من الإعلانات مدفوعة الأجر، تبشر الشعب المصري بإنشاء «مؤسسة الحرية الدولية»